السرقين والسماد

فى الزراعة قديما

لم يكن علم الفلاحة ومعاناة الأرض من العلوم التى انصرفت إليها فى الشرق أنظار العلماء والمؤلفين ، فلم يقم فى الأقطار الزراعية كالشام ومصر والعراق والأندلس من انقطع إلى الدرس والبحث فى علم الفلاحة وعنى بإذاعة تجاربه وأسراره إلا فيما ندر وقل . ومن راجع كتابى الفهرست وكشف الظنون — وهما كل ما وصل إلينا من أسماء الكتب والفنون — لا يكاد يجد فيهما إلا بضعة مؤلفات تدل على قلة عناية القوم بتدوين تجارب الزراعة . ومن أشهر المصنفات فيها :

— كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية . وفى دار الكتب المصرية الجزء الأول منه رقم ٣٩ فى ٣٥ ورقة ، كتب فى ٢٢ رجب سنة ٩٩٥

— كتاب الفلاحة اليونانيـة لقسطا أو قسطوس بن لوقا الرومى ، طبع فى المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٣ للهجرة

— كتاب الفلاحة للروم لعلى بن محمد بن سعد ، ذكره ابن النديم

— كتاب الفلاحة لابن العوام الإشبيلى . طبع فى مجريط (مدريد) سنة ١٨٠٢ وفى مصر

— كتاب الدر الملتقط، من علم فلاحق الروم والنبط، تأليف محمد بن أبى بكر بن أبى طالب الأنصارى الصوفى الدمشقى المعروف بشيخ حطين رقم ٢١ فى مكتبة الدار المصرية ، فيه لغاية الباب التاسع والعشرين ٦٤ ورقة

— كتاب بغيـة الفلاحين فى الأشجار المثمرة والرياحين تصنيف السلطان الملك الأفضل العباس ابن الملك المجاهد على ابن الملك المؤيد داود بن الملك المظفر يوسف بن الملك المنصور عمر بن على بن رسول . ناقص من آخره قليلا . ذكر أنه نقله واستخرجه من مطالعة الكتب المدونة فى الفلاحات ، وسمى منها الكتاب الموسوم بالإشارة فى العمارة تصنيف والده ، وكتاب ملح الملاحة فى معرفة الفلاحة لجده الملك الأشرف . وفى دار الكتب المصرية نسخة من بغية الفلاحين رقم ١٥٥ ، فى ١٦٤ ورقة فيه إلى الباب السادس عشر . وفى خاتمته فوائد زراعية جنية . ويظهر أن المؤلف توفى سنة ٧٧٨ للهجرة

— كتاب الفلاحـة المنتجة لطبيبنا الجركشى منه نسخة حسنة فى دار الكتب المصرية رقم ٢١٩ فى ١١٨ ورقة ، وفى خزانة باريس نسختان منه رقم ٢٨٠٧ و ٢٨٠٨

— كتاب الفلاحة لأبى عبد الله محمد بن الحسين رقم ٤٧٤٦ فى خزانة باريس

— كتاب مفتاح الراحة فى علم الفلاحة رقم ٢٣٧ فى مكتبة الدار المصرية وأوراقه ١٨٩ ، وأكثره منقول من كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية

— كتاب جامع فرائد الملاحة فى جوامع فوائد الفلاحة لرضى الدين الغزى رقم ١٣٤ فى دار الكتب المصرية ، ١١٧ ورقة وفيه فوائد كثيرة

— الفن الرابع فى النبات والزراعة والفلاحة فى تسعة أبواب من كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر لجمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى الوراق المعروف بالوطواط . ومنه ثلاث نسخ فى دار الكتب المصرية ، إحداها مصورة فى ثلاث مجلدات رقم ٣٥٩ . وهو ينقل عن ابن بصال فى كتاب الفلاحة الرسمية ، وعن كتاب النبات لأبى الخير الأندلسى ؛ قال : وهو غريب جدا لم أجد من رآه . وينقل أحيانا عن كتاب ابن الوحشية وكتاب الفلاحة المصرية

— علم الملاحة فى علم الفلاحة للشيخ عبد الغنى النابلسى ، طبع فى مطبعة نهج الصواب بدمشق سنة ١٢٩٩ ، اختصره من كتاب الغزى المتوفى سنة ٩٣٥ السابق الذكر

— عمدة الصناعة فى علم الزراعة لعبد القادر الخلاصى من القرن الثانى عشر

وقد طالعنا كل ما وجدناه من هذه المؤلفات فى دار الكتب

للصرية فوجدنا كتاب ابن العوام أجودها وأعمها وأجدرها بالمراجعة والاعتبار . وقد استوفى فيه كل ما كان مألوفا فى زمانه من علاج الأرضين وزراعة البقول والحبوب وغراس الأشجار وتربية الحيوانات والدواجن ، وروى كل مايتعلق بهذه الأبواب علما وعملا ؛ فهو خير ما يعتمد عليه فى هذا الدرس وفيه فوائد وفرائد توضع عليها اليد وتعد ذخرا للزارع والأكار

ومعلوم أن الأسمدة التى هدت إليها الكيمياء ونبهت على خصائصها وفضائلها فى إنعاش الأتربة وتعويض ما تفقده من المواد والقوى فى تغذية النباتات وتثمير الأشجار لم تكن معروفة فى أوربة قبل القرنين الأخيرين، فكان الأكرة ورجال الفلاحة لا يعرفون إلا السرقين لإصلاح الأرضين وإزكاء الزروع ولذلك قال الخاركى

لا أغرس الغرس إلا فى مسرقنة   والغرس أجود ما يأتى بسرقين(١)

وقد فرقت كتب اللغة بين السرقين والسماد ؛ فالسرقين هو الزبل والروث وحده. وأما السماد، فالسرقين مخلوطا برمل وتراب. وجاء الدمال بمعناه وبمعنى السرقين: يقال دمل الأرض إذا أصلحها أو سرقنها . ومن مزاعمهم فى التقاليد المروية عن محمد بن على بن عبد الله أن « أول من دمن الأرض أى ألقى فيها السماد داود عم » (٢) . وحكى الأصبهانى أن أول من جمع السماد بالبصرة وباعه هو عيسى بن سليمان بن على العباسى من بيت الخلافة حينما كان أمير البصرة « وكانت له محابس يحبس فيها البياح ويبيعه فقال فيه أبو الشمقمق :

إذا رزق العباد فإن عيسى   له رزق من « الحجاز » السماد

فلما تزوج عيسى فاطمة بنت عمرو بن حفص قال محمد بن عيينة فى ذلك :

أفاطم قد زوجت عيسى فأبشرى   لديه بذل عاجل غير آجل
فإنك قد زوجت من غير خبرة   فتى من بنى العباس ليس بعاقل
فإن قلت من رهط النبى فإنه   وإن كان حر الأصل عبد الشمائل
رأيت أبا العباس يسمو بنفسه   إلى بيع بياحاته والمباقل ٢)

ولم ترد لفظة البياح فى المعجمات ولا فى تكملة دوزى .

وإنما جاء البياحة شبكة الحوت ، وبعد طويل البحث والتنقير وفقنا للعثور على الحديث الآتى فى كتاب البخلاء للجاحظ قال :

« حدثنى إبراهيم بن عبد العزيز قال : تغديت مع راشد الأعور فأتونا بجام فيه بياح سبخى الذى يقال له الدراج ، فجعلت آخذ الواحدة فأقطع رأسها ثم أعزله ، ثم أشقها باثنين من قبل بطنها فآخذ شوكة الصلب والأضلاع فأعزلها، وأرى باقى بطنها وبطارف الذنب والجناح، ثم أجمعها فى لقمة واحدة وآكلها » (٣)

ولاشك أن هذا الوصف هو وصف سمك كان بالبصرة تجمع رذالته ونفايته وما يرمى به من شوكه وأضلاعه وأطرافه وتحفظ فى محابس لها حتى يغلب عليها العفن ، فتباع على البساتين كالسماد. ومن ثم تكون البياحات فى حكاية الأصبهانى المواقع التى يحبس فيها البياح والسماد . وهذا أقرب ما يبدو لنا فى تفسير هذه الكلمة الغريبة

وقد فاتنا لا محالة كثير من اختبارات الأكرة وأرباب الضياع والبساتين وفنون علاجهم للأرض وتقييمهم للبقول والأزهار والأثمار . وتكفى مطالعة كتاب ابن العوام الآنف الذكر لمعرفة ما كان لبعض مصطلحاتهم وطرائقهم من الشأن والقيمة . ومن بين الأدلة عليها تنبههم إلى ما فى الدماء والأبوال من القوة والدواء لإصلاح الأرض لما فيهما كما هو معلوم اليوم من الأزوت والنترات ، فأشاروا بهما لطب النباتات والغروسات. قال ابن العوام : « وقد يعالج بعض أدواء النبات بدماء وأبوال لأن للدماء قوى عجيبة فى إنعاش بعض الشجر والنبات » . (٤) ولكن فاته أن ينبه على وجوب تجفيف الدم قبل استعماله

وقد راجعنا مقالاتهم فى أنواع السرقين والمفاضلة بين ذرق الحمام وأرواث الخيل والبغال والحمير ، وأخثاء البقر والجواميس وأبعار الغنم والضأن والماعز ، فإذا أفضل الأزبال عندهم ذرق الحمام ، واختلفوا فى ما يتلوه فى الجودة فقدم بعضهم زبل الحمير على روث الخيل ثم زبل الغنم ثم زبل البقر . ونقلوا عن قسطوس أحد علماء الفلاحة ، وهو قسطا بن لوقا ، أنه قال : « أحسن زبل الطير ذرق الحمام فبحرارته يميت الأعشاب؛ ثم زبل الحمير ثم زبل

١) معجم البلدان ٢ : ٣٨٨
٢) الأعلاق النفيسة لابن رسته ١٩٨

(٣) كتاب البخلاء ١٦٤
(٤) كتاب الفلاحة لابن العوام ، طبعة مدريد ، ١٠٦ .

الغنم ثم زبل البقر، وأنفع الأزبال الصـــامة للنبات زبل الخيل والبراذين ». (٥) وهذا الرأى هو الشائع اليوم فى تفضيل روث الخيل للمزروعات عامة.

وهنالك سرقين آخر أشادوا بجودته، وأجمعوا على إيثاره والمغالاة فيه وهو ما نستميح القارئ أجمل العذر فى التصريح به، وقد سبق الإيماء إليه فى بيت الشمقمق ويسمونه الروث الآدمى وزبل الناس. ومن غريب ماعرف به أيضـــاً ولم نره إلا مرة واحدة اسم « قوسان » نقله ابن الأخوة فى كلامه على حسبة الفاخرانيين والقصــارين فقال: « يشرط عليهم ألا يقدوا على الـكوز بقوســان وهو روث الآدمى ولا بشيء من الأزبال فانه نجس؛ بل بالحلفاء والقيشة وهى قشر الأرز وما أشبهه »(٦).

ومن أشهر أسمائه أيضا الغائط والنجو والعذرة. وإنما الغائط المـكان المطمئن. وكانوا إذا أرادوا الخلاء انحدروا إلى الغيطان أى بطون الأرض تسترا وانتباذا. وكثر ورود الغائط فى كلامهم فانتقل اسمه إلى الحدث نفسه واشتقوا منه الفعل تغوط، كما انتقل اسم الحش وهو فى الأصل البســتان إلى بيت الخلاء لأنهم اعتادوا أن تبرزوا فى البســاتين (٧). وأما النجو فهو الارتفاع من الأرض وكان الرجل إذا خرج لقضاء الحاجة يتستر بنجوة فقالوا من ذلك ذهب ينجو كما قالوا ذهب يتغوط إذا ذهب إلى الغــائط لذلك الأمر (٨). وأما العذرة فهى فناء الدار وكانوا إذا قضوا حاجتهم ألقوها فى الأفنية فأطلق اسم المحل على الحال

وفى أخبارهم عن هذا السماد الآدمى من النكات والمضحكات وهجون العادات والحـكايات الغريبة مايدخل فى أوصاف الحضارة وتاريخ الفلاحة؛ ولذلك لم نتوقف عن رواية بعضها بعد اطراح مالا يجمل ذكره واسـتبدال ما يقبح التصريح به من ألفاظه المبتذلة الفاحشة

وقد عده ابن العوام بعد ذرق الحمام فى الجودة والامتحان للأرض والمنابت كلها(٩). ووصف أيضا كيف يعمل به قبل الاستعمال له فقال: « ينبغى أن يجفف من رطوبته الأولى الأولى حتى يكمل جفافه ويسود ثم يجعل فى الحفائر ويرش عليه الماء العذب ثانية ويحرك تحريكا كثيرا ويخلط حتى يختلط ويجفف حتى يجف جفافا جيدا ثم يخلط به رماد » (١٠)

وكان لأصحاب البساتين طلب عليه شديد وتنازع متواصل « فلا يأنفون تسميد بقولهم قبل بحرمها وتفتق بزورها ولا بعد انتشار ورقها وظهور موضع اللب منها، حتى ربما ذروا عليها السماد ذرا ثم يرسل عليها الماء حتى يشرب موضع اللب قوى العذرة. بل من لهم بالعذرة وعلى أنهم ما يصيبونها إلا مغشوشة مفسدة، وكذلك صنيعهم فى الريحان، فأما النخل فلو استطاعوا أن يطلوا بها الأجذاع طليا لفعلوا. »(١١)

ومما يدل على الاعتقاد الشـائع فى أثر هذا السماد البشرى نكتة رواها البـلاذرى عن معاوية بن مروان وكان محمقا قال: « مر بحقل وقد سمع أهل الشام يقولون لايفلح حقل لا يرى « عجز » صاحبه فنزل وأحدث. »(١٢) ومن أهزل الأبيات التى قيلت فى هذا المعنى ما رواه أبو الفرج الأصبهانى قال:

« اجتمع جيفران الموسوس ومحمد بن بشير فى بستان فنظر إلى محمـد بن بشير وقد انفرد ناحية ثم قام عن شئ عظيم خرج منه فقال جيفران:

قد قلت لابن بشير لمـا رمى من عجانه
فى الأرض تل سماد عـــلا على كثبانه
طوبى لصاحب أرض « خلوت » فى بستانه(١٣)

وكانت البصرة فيما قيل أشهر أسواق السرقين، وأميرها كما سبق كان ممن يتجر به « وللحشوش فيها أثمان وافرة ولهــا فيما زعموا تجار يجمعونها. فإذا كثرت جمع عليها أصحاب البساتين ووقفهم تحت الريح لتحمل نتنها إليهم فإنه كلما كانت أنتن كان ثمنها أكثر، ثم ينادى عليها فيتزايد الناس فيها. وقد قص هـذه القصة صريع الدلاء البصرى — ولذلك ذم الشعراء البصرة

٥) كتاب الفلاحة لابن العوام، طبعة مدريد ١٠٠
٦) معالم القربة فى أحكام الحسبة، طبعة كيمبردج، ٢٣٣
٧) النهاية فى التعريض والـكناية للثعالبى ٣٤ — ٣٥
٨) كتاب الحيوان للجاحظ طبعة مصر ١٣٢٣، ج١، ١٦٢–١٦٣
٩) كتاب الفلاحة لابن العوام ١٠٠

١٠) كتاب الفلاحة لابن العوام ١٠٥
١١) كتاب الحيوان، ١: ١١٦
١٢) أنساب الأشراف: ٥: ١٦٤ — ١٦٥
١٣) الأغانى ١٢: ١٤٠ — ١٤١

وأهلها فقال محمد بن حازم الباهلي (في هجاء البصري) :

يمتن « بجوزه » كأنما يغالي   به عند المبايعة التجار (١٤)

ومن النوادر المروية عن البصرة « دخل فتى من أهل مدينة البصرة فلما انصرف قال له أصحابه : كيف رأيت البصرة ؟ قال : خير بلاد الله للجائع والغريب والمفلس . أما الجائع فيأكل خبز الأرز والصحناة فلا ينفق في شهر إلا درهمين . وأما الغريب فيتزوج بشق درهم . وأما المحتاج فلا عليه غائلة مابقيت له عجزه ، « يحدث ويبيع » (١٥)

واشتهرت أصبهان البصرة في نفاق الحشوش فيها « فإن قيمتها عندهم وافرة » قال ياقوت : حدثني بعض التجار قال : رأيت بأصبهان رجلا من التناء يطعم قوما ويشرط عليهم أن يتبرزوا في خربة له قال : ولقد اجتزت به مرة وهو يخاصم رجلا وهو يقول : كيف تستجيز أن تأكل طعامي وتفعل كذا عند غيري — ولا يكني — ولبعض الشعراء في ذم أصبهان وأهلها أبيات قال فيها أن ليس للناظر في أرجاء أصبهان من نزهة تحيي القلوب غير أوقار المذرة (١٦) ومن أقبح ما وصف به أيضا أهل أصبهان قول أبي القاسم البغدادي :

« يحملون « نجومهم » على رؤوسهم وعلى ظهور دوابهم إلى بساتينهم فينجسون به الأنهار ويربون به الثمار ويأكلونها . أي لعمري هو « نجومهم » منهم بدا وإليهم يعود وهم أحق به . بلدة حشوشها في المسابل وطرقها كالمزابل . لايوجد بهاذو كرم ولا نائل » (١٧)

وعيبت مدينة توزر في إفريقية « بأن أهلها يبيعون مايتحصل في مراحيضهم من رجيع النـاس يفخلون به بقولهم وبساتينهم ولـكنهم لا يرغبون فيه إلا إذا كان جافا فيحملهم ذلك على عدم الاستنجاء في مراحيضهم، ويخرج أحدهم من بيته حتى يأتي القناة فيستنجي من مائها وربمـا اتخذ أحدهم المراحيض على قارعة الطريق للواردين عليها ليأخذ مايتحصل من ذلك ويبيعه .» (١٨)

ولذلك قال الجاحظ : « من أكرم سمادهم الأبعار كلها والأخثاء . إذا جفت ، وما بين الثلط جافا والخثاء وبين المذرة جافة ويابسة فرق » (١٩)

وأقبح ما هنالك ما كان يجري في قابس « فإن أكثر دورهم لا مذاهب فيها وإنما يتبرزون في الأفنية فلا يكاد أحدهم يفرغ من قضاء حاجته إلا وقد وقف عليه من يبتدر أخذ ماخرج منه لطعمة البساتين، وربما اجتمع على ذلك النفر فيتشاحون فيه فيخص به من أراد منهم، وكذلك نساؤهم لا يرين في ذلك حرجا عليهن إذا سترت إحداهن وجهها ولم يعلم من هي » (٢٠)

وأشد ما كان الطلب على السماد في بغداد حتى بعث الطمع بعض أصحاب الرباع على احتكار ما كان يلقى على الكساحة والمزابل ، قال بعضهم : نزلنا دارا بالكراء للكندي فكان في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة وبعر الشاة ونشوار العلوفة » (٢١)

ولابن السميسر في بلنسية Valence وهي من أهم مغارس النارنج والبرتقال في إسبانية تطيف بها منهما حدائق وبساتين ملء البصر :

بلنسية بلدة جنة   وفيها عيوب متى تختبر
فخارجها زهر كله   وداخلها بركة من قذر (٢٢)

ومن الغريب جدا أن يتنازع الناس إلى هذا الحد القبيح أوقار الأقذار! فهل كان سرقين الحيوانات دون الكفاية ؟ ولعل أقرب ما يعلل به هذا الطلب الشديد أن الأبعار والأخثاء كانت تجفف وتدخر للوقود ولا سيما في البلاد التي قلت فيها الأحراج والغياض وتعددت الحمامات كما أشار إليه صاحب كتاب البخلاء حيث قال : « أما القرث والبعر فحطب إذا جفف عجيب » (٢٣) ولا شك أن مثل هذه العادة كانت في الشرق معروفة شائعة منذ القدم؛ ولا تزال متبعة في القرى والجبال إلى اليوم، وقد ألمع إليها الشعراء ، قال الهذلي :

---

١٤) معجم البلدان ١ : ٦٤٧
١٥) معجم البلدان ١ : ٦٤٧
١٦) معجم البلدان ١ : ٢٩٤ — ٢٩٥
١٧) حكاية أبي القاسم البغدادي ٢٢
١٨) صبح الأعشى ٥ : ١٠٦
١٩) كتاب الحيوان للجاحظ ١ : ١١٦
٢٠) معجم البلدان ٤: ٤
٢١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣: ٢٥٩
٢٢) معجم البلدان ١: ٧٣٣
٢٣) كتاب البخلاء ٧٨

وليلة يصطلى بالفرث جازرها
يختص بالنقرى المثرين داعيها [٢٤]

وللأخطل فى إحدى نقائضه

صفر اللحى من وقود الأدخنات إذا
رد الرفاد وكف الحالب القرر

يقول هم صفر اللحى من الدخان، والأدخنات السرقين، والرفاد قدح ضخم، والقرر جمع قرة وهى البرد [٢٥].

وفيما عدا الوقود للاصطلاء كان السرقين تحمى به الحمامات وأتانين الملال صانع خبز الملة وتنانير الخبز [٢٦]. ومن مآثر طاهر بن الحسين أنه رأى يوما فى قصره ببغداد « دخانا مرتفعا كريه الرائحة فتأذى به فسأل عنه فقيل له إن الجيران يخبزون بالبعر والسرجين فقال: إن من اللؤم أن نقيم بمكان يتكلف الجيران شراء الخبز ومئونته .. اقصدوا الدور واكسروا التنانير واحصوا جميع من بها من رجل وامرأة وصبي وأجروا على كل واحد منهم خبزه وجميع ما يحتاج إليه .. فسميت أيامه « الكفاية » [٢٧]

وعزم أحد الخلفاء العباسيين على الشرب يوما واستنكف من رؤية الرجيع واستنشاقه بين أزهار البستان؛ فزينت له أنفته أن يستعيض عنه بما لا يخطر إلا فى أذهان الملوك وهو ما رواه التنوخى قال:

« أراد المقتدر الشرب على نرجس فى بستان فى صحن دار من سفار صحونه فقال بعض من يلى أمر البستان: سبيل هذا النرجس أن يسمد قبل شرب الخليفة عليه بأيام فيحسن ويقوى، فقال هو: ويلك يستعمل « الرجيع » فى شئ بحضرتى وأريد أن أشمه. قال: بهذا جرت العادة فى كل ما يراد تقويته من الزروع، فقال: وما العلة؟ قال: لأن السماد يحميه ويعينه على النبات والخروج، قال: فنحن نحميه بغير السماد. وتقدم فسحق من المسك بمقدار ما احتاج إليه البستان من السماد وسمد به وجلس يشرب عليه يومه وليلته واصطبح من غده عليه، فلما قام أمر بنهبه فانتهب البستانيون والخدم ذلك المسك كله من أصول النرجس واقتلعوه مع طينه حتى خلصوا المسك فصار البستان قاعا صفصفا، وخرج من المال شئ عظيم كثير فى ثمن ذلك المسك » [٢٨]

باريس السوربون **شاكر محمود**

٢٤) كتاب الحيوان ٦: ١٩٦
٢٥) النقائض، طبعة بيروت ١٦٥،
٢٦) كتاب الحيوان ١: ١١٦
٢٧) معجم البلدان ٢: ٢٥٦
٢٨) نشوار المحاضرة ١: ١٤٤

مطبوعات المجمع العراقى

تاريخ العرب قبل الاسلام

أوسع كتاب فى تاريخ العرب قبل الإسلام جمع من الكتابات العربية الجاهلية ومن النصوص الكلاسية والتوراة والتلمود

تأليف الدكتور

جواد على

طبع عام ١٩٥١